الثعابيـــن

الثعـابين أكثر أنواع الحـيوانات في العالم إثارة للعجب والخوف والاهتمام. فهي تـستطيع أن تزحـف على اليابسـة بسرعة الإنسان لمسافة قصيرة، ويستطيع بعضها تسلق الأشـجار بسرعة القرود، كما يسـتطيع بعضـها أن يسبح بسرعـة الأسماك.

وتعد الثـعابين من أكثر الحـيوانات الزاحفة انتشاراً في العالم. وهي معروفة بأشكالها وأحجامها منذ أقدم العصور، وأنواعها كثيرة يقدر عددها بحوالي ثلاثة آلاف نوع، معظمها غير سام. وينحصر العدد السام منها فـي حوالي ثلاث مئة وخمسين نوعاً فـقط، تفرز من غددها اللعابية سماً تستعمله سلاحاً تهاجم به فريستهـا للتغلب عليهـا أو للدفاع عن نفسها. وأذاها للإنسان إما عضويٌّ عند لدغه وحقن السم في جسده مما قد يفضي به إلى الموت، أو نفسيٌّ نـتيجة الرعب الذي يصيبه عند مفاجأتها له. وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم بطريقة توحي بحدوث الخوف عنـد رؤيتها مثل قوله تعالى في سورة طه ﴿فـألقاها فإذا هي حية تسعى﴾ (طه: ٢٠) وقوله تعالى في سورتي الأعراف والشعراء ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾ (الأعراف: ١٠٧)، (الشعراء: ٣٢). وما زالت الأفاعي تعد رمزاً لـلرهبـة والموت، ويُجـعل رسم الأفعى وتحت رأسها كأس، شعاراً على خـزانة الـسـموم فـي الـصيـدلـيات والمستشفيات تعبيراً عن هذا الخطر، وربما تعبيراً عن إمكانية استـخراج الدواء من سم الأفاعي. قال شوقي «ومن السموم الناقعات دواءُ».

ويعود خـلق الثعـابين على سطـح الأرض إلى حـوالي ٢٠ مـليون سـنة خلت. وتعيش في كل بقاع الأرض عدا المنـاطق الشـديدة البـرودة، لأنهـا من

الحيوانات التي تتغير حرارة جسمها فلا تتحمل البرودة الشديدة، ويزداد عدد هذه الحيوانات كماً ونوعاً، كلما اقتربنا من خط الاستواء، حيث تتوافر مستويات الحرارة الملائمة لنشاطها، وتقل أعدادها كلما ابتعدنا عن خط الاستواء. وتعيش الثعابين في جميع البيئات، في الصحارى والجبال والوديان، وعلى الأشجار وفي البحار وتحت الأرض. ولكل بيئة من البيئات أنواع ثعابينها الخاصة التي تعيش فيها، وقد تكيفت معها واكتسبت صفاتٍ وخصائص تلائم المعيشة فيها. فالأنواع التي تعيش في المناطق الرملية تكون رملية اللون. أما تلك التي تعيش بين الصخور فإنها تكتسب لوناً مشابهاً للون تلك الصخور، ويساعدها هذا التمويه على الاختفاء من أعدائها وتجنب الأخطار. وكل الثعابين تبيض، وإن كان قليل من أنواعها يبدو وكأنه يلد. وتعدّ جزيرة العرب من أكثر المناطق ملاءمة لمعيشة الثعابين، لما تحويه من ظروف مناخية، وبيئات مناسبة لحياة هذه الحيوانات.

يتكون جسم الثعبان من ثلاثة أقسام، هي الرأس والجذع والذيل. وتختلف أشكال الثعابين اختلافاً بيناً يصعب معه تحديد شكل خاص بها. فقد يكون الجسم أسطوانياً، وقد ينبسط، وقد يكون طويلاً ضخماً، أو رفيعاً، أو يكون سميكاً

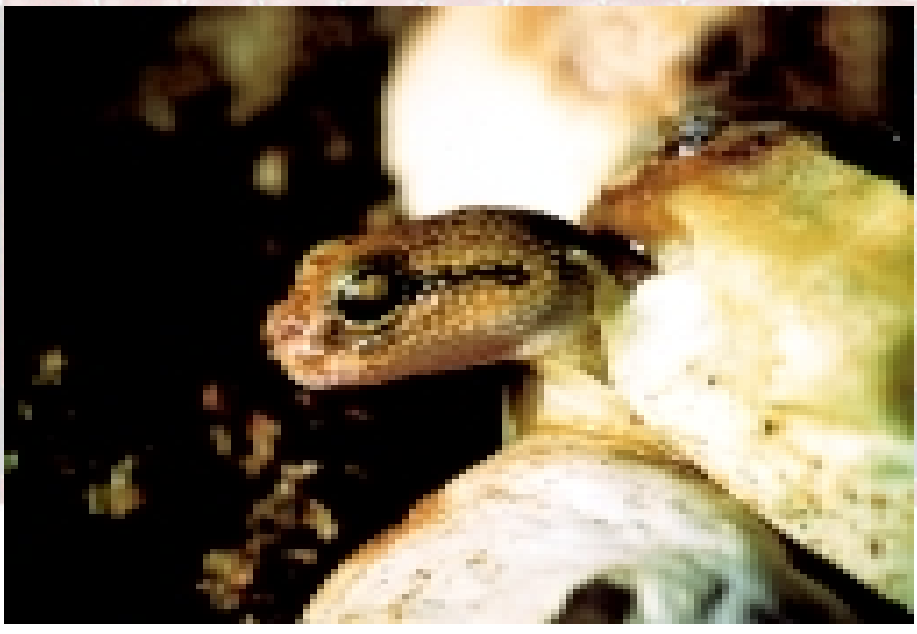

أفعى أم جنيب تخرج من البيضة

قصيراً، وقد يصغر لدرجة يصعب معها تمييزه من دودة الأرض. والثعابين زواحف عديمة الأطراف، تخلو أجسامها من الحزامين الصدري والحوضي عدا أنواع قليلة بها آثار لحزام الحوض، ويتراوح طولها من بضع سنتيمترات إلى عدة أمتار. ولا تشاهد الثعابين باستمرار لأن معظمها تختبىء في جحورها أثناء النهار فهي ليلية المعيشة، ولأن معظم أنواعها سريع الحركة مما يصعب معه ملاحظتها. كما أن لبعض الثعابين المقدرة على القفز لمسافة قصيرة، وذلك من خلال ارتكازها على الذيل ثم القفز مما يوهم بأنها تطير، بل بعضها يقفز من شجرة لأخرى، إذ تنتفخ ثنيات جلدية خاصة في منطقة البطن تكون كجناحين، يساعدانها على القفز فتبدو كأنها تطير.

وللثعابين قلب ومعدة وكليتان وأمعاء ورئة واحدة غالباً. ولما كان جسم الثعبان دقيقاً أسطوانياً جاءت أعضاؤه أيضاً دقيقة متطاولة لتناسب الشكل الانسيابي لجسمه. ولا بُدّ أن تنحشر الأعضاء في هذا الحيز الطويل الضيق حشراً، ولهذا نجد ترتيب الأعضاء عجيباً، فالأعضاء الثنائية مثل الكليتين لا يوجد الواحد منها بجانب الآخر كما في أجسامنا، ولكن أحدهما تحت الآخر، ومخ الثعبان ليس كبيراً، فهو ليس في ذكاء القطط أو

رأس الثعبان مثلث الشكل وجسمه أسطواني

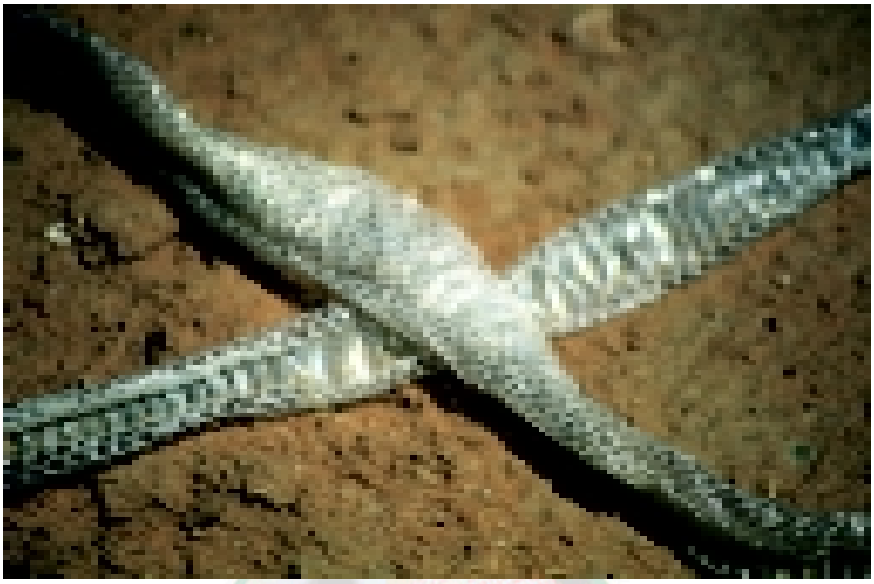

جلد الثروان (ينسلخ الثعبان من جلده القديم)

الكلاب، ولا يكسو أجسام الثعابين ريش أو فراء يحميها من تقلبات الجو، ولكنها مغطاة بحراشف قوية ذات أشكال مختلفة. فمنها المستدير، والبيضي، والمثلث، والمتعدد الجوانب، وقد تكون الحراشف الظهرية مختلفة عن الحراشف البطنية شكلاً. ويكسو جسم الثعبان فوق هذه الحراشف القوية طبقة خارجية من الجلد الرقيق تنسلخ كلما ضاقت. وعند أهل نجد يسمى انسلاخ جلدها اسلاب، فيقال: أسلبت الحية، ويطلق على الجلد الذي تخلعه سِلْب، فكلما نما الثعبان أصبح الجلد ضيقاً عليه، ولا بد له من خلعه واستبدال جلد جديد ذي حجم مناسب لجسمه به. والثعابين الصغيرة تغير جلدها عدة مرات في السنة، أكثر مما تغيره الكبار، نظراً لنموها السريع. وينسلخ الثعبان من جلده القديم بعملية فيها الكثير من الدقة والمهارة، فهو يحك فكه على سطح خشن، كصخرة مثلاً، وبهذا يصبح الجلد حول أطراف فمها حراً، ويستمر الثعبان في الحك ودفع جسمه ضد الصخرة، ليبدأ الجلد في الانسلاخ، ويتحرك الثعبان إلى الأمام، ويزحف خارجاً من جلده القديم، ويرى جسمه لامعاً كأنما قد فرغ تواً من الاستحمام. أما عن سلب الثعبان وهو جلده القديم الذي تركه خلفه، فله أربع فتحات، هي فتحة الفم، وفتحتا الأنف، وفتحة المجمع، وهي فتحة مشتركة

للجهاز الهضمي والجهاز البولي-التناسلي. ولأن السلب على هيئة الثعبان قد يخاف منه للوهلة الأولى، قالوا في المثل الشعبي «سلب داب يخوّف ولا يقرص».

وليس للثعابين آذان خارجية أو طبلة سمعية بل تستقبل الأصوات بعظامها. أما حاسة البصر فيها فهي ذات كفاءة عالية في رؤية الأشياء القريبة جداً منها، وعينها مزودة بعدسات ذات قدرة على التركيز على الأشياء القريبة والبعيدة على السواء، أما جفون الثعابين فشفافة غير متحركة. وللثعابين عمود فقري طويل، قد يصل عدد فقراته في بعض الأنواع إلى ٤٠٠ فقرة، وأضلاعها سائبة لا يمسكها عظم قَصِّي كما في الثدييات. ويساعد الثعابين في سرعة حركتها إلى الأمام تقلص عضلاتها القوية وانقباضها، وكون أضلاعها سائبة، حيث ترتكز على أطراف الأضلاع السائبة وتندفع إلى الأمام. ومعظم الثعابين خرسٌ لا صوت لها، ولا تستطيع أن تحدث أصواتاً مثل الطيور أو الحيوانات الأخرى. ويعتقد الناس أن لسان الثعبان سام حيث يوحي شكله المشقوق بذلك. والحقيقة أن الثعبان يخرج لسانه لتلمس الأشياء المحيطة به، حيث تنتقل عن طريقه الرائحة إلى عضو آخر في سقف الفم يسمى عضو جاكوبسون. وأغلب الظن لدى العلماء أن اللسان يعطي إحساساً خليطاً بين اللمس والذوق. فمثلاً تستطيع الأفعى أن تميز بين البيضة الفاسدة والبيضة السليمة دون أن تكسرها، ومن هذا الحس يعلم الثعبان الشيء الكثير عن البيئة حوله فلعلها فريسة نافعة يظل يتعقبها، أو لعلها أنثى له يمضي وراءها يطلبها.

والثعابين حيوانية التغذية لا تأكل النباتات. وهي تقتل فريستها إما بلدغها وحقن السم فيها أو بالالتفاف حولها وخنقها ومن ثَمَّ بلعها. ولكل نوع من الثعابين غذاؤه الخاص به، فالثعابين المائية تتغذى بالأسماك والضفادع، وتتغذى الثعابين التي تعيش بالصحراء باليرابيع والفئران. أما الثعابين التي تدفن نفسها في الأرض فأكثر ما يكون غذاؤها من الديدان والحشرات، مثل الجراد، قالوا في المثل الشعبي «حية الجراد ما تدري وش تقرص». والثعابين تأكل فرائسها حية، ولا تتغذى بالحيوانات الميتة، وهي تبتلع غذاءها ابتلاعاً دون تقطيع أو مضغ. وللثعابين المقدرة على ابتلاع فرائس أكبر منها حجماً نظراً لمرونة الاتصال بين فكيها العلوي والسفلي وخلو جسمه من عظم القص. ويستغرق البلع وقتاً طويلاً، ويبدأ

الهضم بعد أن يستقر الغذاء في المعدة، وقد تكفي وجبة واحدة الثعبان عدة أيام أو أسابيع، وقد تمتنع بعض أنواع الثعابين عن تناول الطعام لفترة طويلة قد تصل إلى سنتين، وهي تشرب الماء إذا وجدته.

ويعتقد بعض الناس أن الحية أو الأفعى هي الأنثى، وأن الثعبان هو الذكر. وهذا اعتقاد خاطىء حيث يطلق، من الناحية العلمية، اسم الثعبان على كلا الجنسين الذكر والأنثى. أما الحية أو الأفعى فمصطلح علمي يطلق على أفراد عائلة معينة من عائلات الثعابين تتصف بأن لها رأساً مثلثاً وذيلاً قصيراً وجسماً سميكاً. والأصل أن كلمة حية ليست اسماً لهذه الأنواع من الكائنات، وإنما هي كناية يستغني بها المتكلم عن النطق باسمها الحقيقي الأفعى لما يقترن به من رهبة. ولأن الناس يعتقدون بأن من ينطق باسمها الحقيقي كان كمن يناديها لتأتي إليه، وهو ما يحاول المتكلم أن يتحاشاه. وهذا شبيه بقولهم «البسم الله» بدل كلمة «الجن». أي أن الحية في الأصل تعني هذا الكائن الذي منحه خالقه الحياة. وبعض فقهاء اللغة يقول: إنها سميت حية لأنها لا تموت حتف أنفها، وإنما تموت بعَرَضٍ يعرِضُ لها، أما إذا لم يصبها شيء فإنها تبقى حيَّة أبداً. وهذا الكلام لا يقره الدين ولا العلم إذ إن هذه الحيوانات مخلوقة لها عمر وأجل مثل كل الكائنات الحية الأخرى.

واسم الحية تطلق على الذكر والأنثى. فإن أردت التمييز بينهما قلت: هذا حيةٌ ذكر وهذه حية أنثى. وقد روي عن بعض العرب قوله: رأيت حيةً على حية، أي ذكراً على أنثى. والنسبة إلى الحية حيوي، والحيوت ذكر الحيات وقد أنشد الأصمعي.

ويأكل الحية والحيوتا
ويخنق العجوز أو تموتا

وعلاقة الإنسان بالثعبان علاقة قديمة. فقد سيطرت الثعابين بكل غموضها على مخيلة الناس على مر العصور، وقال الرواة إنها ملعونة لأن أبليس طلب منها أن تخفيه في جلدها، ليوسوس لآدم وحواء في الجنة. وهذا القول من الإسرائيليات. وقد انعكس صدى المعتقدات حول هذه الحيوانات عند العرب في أشعارهم وأمثالهم، فذكروها في قصائدهم. كما أنها من أكثر الحيوانات وروداً في القصص. ولعل اهتمام الشعراء بهذه الحيوانات نابع من طريقة حياتهم التي كانوا يعيشونها. فأغلب هؤلاء الشعراء عاش في وسط الصحراء، ورأى هذه الكائنات، وعايشها، وعرف

أوصافها الدقيقة، لذا جاءت قصائدهم تصفها وصفاً حسياً.

وقد نهى ﷺ عن قتل الثعابين ما عدا نوعين استثناهما ﷺ، هما ذو الطُفيتين والأبتر. وهما نوعان من الحيات الخطيرة. وجاء في الحديث النبوي «أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الجنان في البيوت، إلا ذي الطُفيتين والأبتر، فإنهما يخطفان البصر ويطرحان ما في بطون النساء». وفي رواية أخرى: أن عبدالله بن عمر #، سمع رسول الله ﷺ، يخطب على المنبر يقول «اقتلوا الحيات واقتلوا ذا الطُفيتين والأبتر، فإنهما يطمسان البصر ويسقطان الحبل».

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: قوله ﷺ «ذو الطفيتين» بضم الطاء المهملة وإسكان الفاء، قال العلماء هما الخطان الأبيضان على ظهر الحية. وأصل الطُّفية خوصة المقل، وجمعها طُفَى. شبه الخطين على ظهرها بخوصتي المقل. قال الزمخشري:

وهم يذلونها من بعد عزتها
كما تذل الطُّفَى من رقية الراقي

وأما الأبتر فهو ثعبان قصير الذنب. قال النّضر بن شميل: هو صنف من الحيات أزرق مقطوع الذنب لا تنظر إليه الحامل إلا ألقت ما في بطنها. وهذا الكلام يحتمل الصحة. وذلك لأن المرأة عموماً، كما أثبتت التجربة، إذا سمعت أو رأت ما يفزعها ويروّعها وهي حامل قد تسقط جنينها. ومن الممكن أن الفزع الذي يحدث للمرأة الحامل عند مشاهدة الحية في صورة فجائية يسبب سقوط حملها. ومن المعروف أن نظر المرأة إلى حيوان صغير مثل الفأر قد يسبب لها إرباكاً فكيف بثعبان أو حية ذات منظر مخيف.

ووصف الثعبان ذي الطفيتين لا ينطبق على أي أنواع من الحيات السامة المعروفة في جزيرة العرب ولكنه أكثر ما يوافق أفعى السجاد الشرقي، وهي أفعى خبيثة جداً، لبعض أصنافها خطان أسودان متعرجان على ظهرها، جاء في تاج العروس: ذو الطفيتين حية خبيثة على ظهرها خطان أسودان كالطفيتين. وقد يتبادر إلى الذهن أن ذا الطفيتين هو الثعبان المعروف عند العامة بالزاروق، ولكن هذا الثعبان غير سام أو أن سمه من النوع الضعيف الذي لا يؤثر على الإنسان، وظن بعضهم أن ذا الطفيتين هو ثعبان الناشر الهندي، إلا أن هذا الثعبان لا يعيش له في جزيرة العرب، وليس على ظهره خطان، بل على عنقه ورأسه حلقتان سوداوان، لذلك يسمى الحية ذات

النظارة، وتجدر الإشارة إلى أن الخطين الأسودين يريان دائماً في أفعى السجاد الشرقي، فقد تكون رقشاء منقطة بالسواد، وربما اجتمعت النقط على جانبي ظهرها فكان منها هذان الخطان، كما جاء في كثير من كتب الحيوان، أما الأبتر فيطلق على بعض أنواع الأفاعي القصيرة الذنب مثل الأفعى المقرنة وهي أفعى لها نتوءان صغيران في رأسها كأنهما قرنان، وهي من أخبث الحيات تندس في الرمال فإذا مر بها أحد لدغته، قال الشاعر.

وذات قرنين طحون الضرس
تنهس لو تمكنت من نهس
تدير عيناً كشهاب القبس

وأما قوله ﷺ «يخطفان البصر» ففيه معنيان ذكرهما الخطابي وآخرون. أحدهما بمعنى يخطفان البصر ويطمسانه بمجرد النظر إليهما لخاصية جعلها الله تعالى في بصرهما إذا وقع على بصر الإنسان. أما الرواية الأخرى فهي أنهما يلتمسان البصر أي يقصدانه باللسع والنهش. وكلام الزهري «أنه يرى ذلك من سمهما» فيه كثير من الصحة، أي أن إسقاط الحمل من النساء، وطمس البصر، كله بسبب سموم هذه الحيات، حيث إن السم عندما يقذفه الثعبان على عين الإنسان يفقده بصره، وكذلك عند لدغ المرأة قد يسبب لها هذا السم إسقاط حملها، لأن هذه السموم تسبب ارتخاءً لعضلات الرحم مما يسبب إسقاط الجنين. وهناك أنواع من الثعابين لديها القدرة عن قذف سمها على عين الإنسان حتى ولو كان على بعد أمتار عنها. ومن هذه الأنواع البزاقة، أو الناشر المصري، أو البخاخ. وهي الحية التي قتلت بها الملكة المصرية القديمة كليوباترا نفسها، وذكرها بلينوس الروماني وسماها البزاقة، وسماها ابن سينا أيضاً بالبزاقة لأنها تنفث السم عن بعد، وقال في وصفها: إنها تقدر أن تمج بزقها وتزرقه بعصر أسنانها بعضها على بعض فتقتل من يقع عليه بصاقها، وطولها ذراعان، ولونها رمادي يميل إلى الصفرة.

وقد تعددت أسماء الثعابين عند العرب. وأكثر ما يذكرونه منها الرقشاء وهي التي فيها نقط سود وبيض. وقد أشار النابغة إليها عندما صور قلقه، مثل قلق من لدغته أفعى رقشاء اللون، فقال:

فبت كأني ساورتني ضئيلة
من الرقش في أنيابها السم ناقع

وأضاف النابغة يقول:

تبادرها الراقون من شر سمها
فتطلقه يوما ويوما تراجع

وهناك أنواع من الثعابين يقال لها «الرقطاء». وهي من أخبث الأفاعي. وقد ذكرها الشاعر في قوله:

هُمُ أيقظوا رقط الأفاعي ونبهوا
عقارب ليل نام عنها حواتها
وهُمْ نقلوا عني الذي لم أفه به
وما آفة الأخبار إلا رواتها

وهناك الأرقم الذي أشار إليه الشاعر في حديثه عن تشبيه آثار الديار فقال.

لمن الديار غشيتها بالأنعم
تبدو معالمها كلون الأرقم

وتعتقد العامة في بلاد الشام أن الحية ذات القرنين تكون عظيمةً جداً، ومتى بلغت ألف سنة من العمر نبت لها قرنان. ولا شيء من الصحة في ذلك، بل القرناء أفعى قصيرةٌ جداً لا يتجاوز طولها نصف المتر ولا تبلغ هذا العمر أو حتى تقارب عشر معشاره. ومن أسماء الأفعى القرناء (الحارية)، قال الدميري: الحارية نوع من الأفاعي قال عنها النابغة الذبياني:

داهيةً قدْ صغَرتْ من الكِبَرْ
صِلّ صفاً ما ينطوي من القِصَر

وفي تاج العروس «الحارية الأفعى التي كبرت، ونقص جسمها، ولم يبق إلا رأسها ونفسها وسمها» ويقال «رماه الله بأفعى حارية».

تتزاوج الثعابين في الربيع حيث ينجذب الذكر إلى الأنثى بمادة ذات رائحة خاصة تفرزها الأنثى من غدة في جسمها فيتعرف عليها الذكر ويهتدي إلى مكانها ويظل يتحبب إليها حتى يتهيأ لهما اللقاء، ويلتف الذكر حول الأنثى بإحكام لدرجة أنه لولا مشاهدة رأسيهما لخيل إلى الرائي أنهما ثعبان واحد، وذلك من أجل التقاء الفتحتين التناسليتين لكلا الثعبانين وتقابلهما تماماً لإتمام عملية التلقيح التي قد تستمر يوماً كاملاً أو أكثر، وقد يتعارك الذكران حتى يفوز أحدهما بالأنثى، فيهرب الآخر.

والثعابين حيوانات بيوضة فهي تبيض بيضها في مكان رطب وتتركه، وبعض أنواعها، مثل البوا أو الأصلات، ترقد عليه وتحضنه لرفع درجة حرارته، وتضع معظم الثعابين بيضها في شقوق حيث تستمد البيوض الحرارة من الجو والنباتات المحيطة بها. وبعد أن يفقس البيض تخرج منه الفراخ وتعتمد على نفسها، دون رعاية من الأم، حيث تتغذى بالحشرات والديدان حتى تبلغ ومن ثم يبدأ غذاؤها العادي. ومن الثعابين مالا يخرج البيض من جسمها إلا بعد فقسه وخروج الفراخ منه، وعندما تخرج أولادها من جسمها يظن الناظر إليها أنها تلد ولا تبيض،

والواقع أنها تبيض كسائر الثعابين، ولكنها تحتفظ ببيضها داخل جسمها في قناة البيض حتى يكتمل الجنين خَلْقاً. وهو أثناء ذلك يتغذى من صفار البيض وما تحتويه البيضة من طعام، أي أنه لا يشارك أمه طعامها. وعند اكتمال تكوين الثعبان المولود فإنه يخرج من البيضة لحظة خروج البيضة من فتحة الأم التناسلية، فيظهر وكأنه مولود. والحقيقة أن الأم لم تلده بالمعنى المعروف في الثدييات. ويطلق على هذا النوع من الثعابين، الثعابين البيوضة الولودة. ويختلف عدد المواليد التي تضعها هذه الثعابين باختلاف النوع، إذ تلد بعض الأنواع من ٦ إلى ٨ فراخ، وهنالك أنواع تضع من ٨ إلى ١٢ صغيراً. وهذه الصغار مزودة بكافة الغرائز والبواعث التي تمكنها من التحرك السريع من مكان إلى آخر كما أنها مزودة بسلاح تدافع به عن نفسها وهو إما السم أو التمويه أو الهرب، وتستطيع أن تفعل كل ما تفعله الثعابين البالغة ما عدا التناسل، وكل ذلك بالفطرة دون سابق تلقين أو تدريب.

ومن الصعب تقدير العمر الذي تعيشه الثعابين في مواطنها الطبيعية، إلا أن العلماء يقدرون عمر الأنواع الكبيرة منها بحوالي عشرين عاماً، وتصل أعمار الأنواع الصغيرة إلى ما بين عشرة أعوام، وخمسة عشر عاماً، وتشير بعض التقارير إلى أن الثعبان الذي عاش أطول مدة في الأسر هو ثعبان الأنوكوندا الذي يعيش في حوض الأمازون، حيث قضى ثمانياً وعشرين سنة في الأسر.

ودرجة حرارة أجسام الثعابين متغيرة، تعتمد إلى حد كبير على درجة حرارة الوسط الذي تعيش فيه، فإذا كان الهواء حولها بارداً هبطت درجة حرارتها، وإذا كان ساخناً ارتفعت درجة حرارتها، ولهذا لا تستطيع أن تعيش في أقصى الشمال والجنوب، كما تلجأ هذه الحيوانات إلى ما يسمى السبات الشتوي هرباً من برودة الشتاء إذ يصعب عليها الحركة عندما تنخفض درجة الحرارة، ولذا تنسحب لتبحث عن مكان تحت الأرض، أو شق بين الصخور، أو تحت فروع الأشجار العفنة، وتقضي فترة سباتها الشتوي دون حراك، وعندما ينتهي الشتاء ويطل الربيع ويدب الدفء، سرعان ما تعاود نشاطها، وتخرج إلى سطح الأرض لتزاول حياتها العادية بعد أن تمكث في سباتها ما يقارب أربعة أشهر.

ويمكن تقسيم الثعابين من حيث سُمِّيتها إلى ثلاثة أنواع، هي «ثعابين غير سامة»، لا تمتلك جهازاً سميّاً وليس لها

غدد سامة ولا أنياب للسم، ومن أنواعها الأصلة، وثعابين ضعيفة السمية، لها أنياب شبيهة بالمحقن، وبها قناة للسم، وبعضها أنيابه خلفية، ويحتاج إلى فتح فمه على اتساعه، حتى يستطيع غرسها بالفريسة، مثل ثعبان أبو العيون (الحنش)، وغدة السم لدى بعض هذه الثعابين ضئيلة ويكون سمها من الضعف بحيث لا يؤثر على الإنسان، والثعابين شديدة السمية لها جهاز سم متطور يتكون من غدد سامة وأنياب حادة، كما أن لمعظمها، كما هو الحال في أنواع الأفاعي، أنياب أمامية متحركة تتصل بغدة السم في أعلى الفك العلوي، حيث يسيل السم خلال أخاديد مفتوحة على سطح الأنياب أو بقناة داخل الناب لحقن السم في جسم الفريسة. ويخرج سم الثعبان من أنياب في فكه العلوي، ويجري من غدة عند زاوية الحنك، وهذه الأنياب تكون دائماً في مقدم الفم لتكون أقرب إلى الفريسة، وقد تكون في مؤخرة الفم وعندئذ يكون السم أقل فعالية. والثعابين الأخيرة لا خطر منها على الإنسان لأنها لا تستطيع أن تتمكن من جسمه حتى يصل إلى الأنياب.

ومن الثعابين ما ليس له أنياب للسم، إلا أنَّ السم يوجد مخلوطاً بلعابها، وهو يكفي لشل حركة الحشرات التي تتغذى بها. وهذه الثعابين لا خطر منها على الإنسان، والواقع أن كثيراً من أنواع

الفك العلوي لأم جنيب وتظهر فيه الأنياب

الأرقم ويسمى (ثروان) أو (حنش)

الثعابين لا يضر الإنسان، وأن منها الأليف المستأنس، كما أن هناك فئة من الثعابين لا تقتل بالسم، لأنها غير سامة ولكنها تقتل بالالتفاف والضغط على الفريسة ،فتشد جسمها على لحم الفريسة وعظامها حتى تتحطم ولو كانت كبيرة الحجم، ومن هذه الأنواع ثعبان البايثون، وثعبان البوا، وهما نوعان ضخمان ذوا جسم عضلي قوي.

وعلى الرغم من كثرة أنواع الثعابين وتعدد فصائلها، إلا أن عدداً قليلاً منها هو الذي يعد خطيراً، وفي الوطن العربي عدد غير قليل من أخطر أنواع الثعابين، وفي بيئات المملكة العربية السعودية ما يقارب ٥٥ نوعاً من الثعابين السامة وغير السامة، منها ٩ أنواع من الثعابين البحرية السامة، و١٤ نوعاً من الثعابين البرية السامة، وبذلك تبلغ نسبة الثعابين السامة حوالي ٤٢٪ منها. وتختلف درجة سمية هذه الأنواع من نوع إلى آخر، ومن بيئة إلى أخرى، تبعاً لمؤثرات عديدة منها درجة الحرارة والظروف المناخية الأخرى.

وسم الثعبان سائل أصفر، يتكون من مزيج من البروتينات وبعض الإنزيمات، ويدخل عبر الجلد إلى الأنسجة، ومنها إلى الدم فينتشر في الجسم كله، وتؤثر مواده البروتينية في الدم مباشرة في كراته الحمر والبيض، كما أنها قد تؤثر على الجهاز العصبي فتصيب الضحية بالشلل، ويترجح التأثير في الدم على التأثير في العصب أو العكس، وفقاً لنوع الثعبان، ولكل سم

ترياقه الخاص به، والترياق في اللغة دواء يضاد السموم ويوقف تأثيرها.

ويستحضر ترياق سم الثعبان من الثعبان نفسه، فبعد تفريغ السم في كأس خاص يعالج بما يخفف من وطأته، ثم يحقن في أجسام الخيول بطريقة خاصة، فتقوم الخيول بتكوين أجسام مضادة له تتكون في مصل الدم، وهي الترياق ضد هذا السم، فيؤخذ قليلٌ من دم الحصان، ومنه يحضر المصل الواقي أي الترياق الذي يحقن به الشخص الملدوغ فيُبطل تأثير السم عليه.

ويختلف أهل البادية من حيث معرفتهم للثعابين، السام منها وغير السام، فبعضهم يعرفون السام من شكل عضته على العضو المصاب، حيث يظهر جرحان كبيران غائران في الجلد. أما غير السام فيكون أثر عضته متجانسا، فلا يظهر سوى الجروح التي تسببها الأسنان. وبعد التأكد من أن الثعبان سام تبدأ محاولة العلاج والتخلص من هذا السم بما لدى الناس من خبرة ومعرفة وعلم، وهنا نرى اختلافاً في طرق العلاج ومدى فاعليتها، فهناك من يكتفي بالرقية، وهناك من يستخدم الكي بعد مص الدم، حيث يُحدث شقاً في الجرح مكان اللدغ ويأخذ بمص الدم من الجرح حتى يسحب أكبر كمية من السم قبل أن تنفذ إلى الجسم وهذا يتطلب شفتين سليمتين من الجروح، وجوف سليم ليس به أي تقرحات.

ويرى بعض المعالجين لعضة الثعبان ضرورة وضع قليلٍ من زيت الفرامل أو البنزين على الجرح، لمنع السم من الانتشار في الدم، إن تأخر وصول المصاب إلى المستشفى، لتلقي العلاج. وذكر آخرون أنهم يحرقون الثعبان بعد قتله ورمي رأسه، ثم يضعون الرماد الناتج على الجرح. فإن ورم موضع الجرح بعد فترة دل على أن الثعبان سام، أما إن لم يحدث ورم فالثعبان غير سام. ومنهم من يلاحظ السم الداخل إلى الجسم، فإن شاهد الدم مختلطاً بمادة صفراء دل ذلك على أن السم قد دخل إلى الجسم، ولابد من إخراجه بشق الجرح ومص الدم، أو بوضع قليلٍ من البنزين على الجرح لسحب السم من الدم. وفي مناطق أخرى، خاصة القريبة من ساحل الخليج العربي، يستخرج البحارة نوعاً من الأصداف يسمى «لافور فورا» يحرقونه ويجعلون رماده على هيئة عجينة يطلى بها العضو المصاب بعد إزالة السم، لمعالجة الطفح الذي على الجلد، ويستمر العلاج لعدة أيام حتى تزول هذه الآثار.

وذكر أشخاص في مدينة القويعية، أن الملدوغ يُسْقى لبناً وعسلاً لأقصى مدة يستطيع أن يتحملها، ويجب ألا تقل عن يومين متواصلين، لا يقطعهما نوم أو حتى غفوة. وفي هذه الحالة يتناوب عليه أصحابه وأهله من أجل إبعاد الرعب والخوف عنه، إذ ربما يكون الخوف سبباً في وفاته حتى ولو كان الثعبان غير سام. والأهم من ذلك هو عدم إعطائه فرصة بأن يغلب عليه النوم خلال هذه الفترة، وحتى يظل جسمه نشطاً لمقاومة السم. ويسهر أصحابه طوال الليل بجانبه، يقرعون الطبول ويغنون، ويبقون على هذه الحال، حتى يشفى، بإذن الله، من اللدغة، أو حتى يقضي عليه السم.

كانوا في نجد يعالجون من لدغة الأفعى بدفن العضو الملدوغ في الأرض بطريقه خاصة بحيث يتبقى هذا العضو المدفون معلقاً في الحفرة، ولا يدعونه ينام حتى لا يسري السم في جسده؛ يقول حميدان الشويعر:

من تجوّز عجوز فهو نادمٍ
لو يفرّش ويلحَّف ثمين الذهب
ما خبرنا يساهر ياكُوْد القريص
جعلها الله تساهر على أيَّة سبب

ما خبرنا: ما علمنا، كود: سوى، القريص: المقروص أي الملدوغ.

ويذكر أحد المسنين، ممن يقطنون شمال المملكة، أنهم كانوا قديماً يعالجون الملدوغ بأن يخرج شبريته ويقطع الجزء الملدوغ قطعاً جزئياً، لكي يسيل الدم بغزارة، حتى ينزف منه ما يعادل لترين أو أقل من ذلك، وتكون النار جاهزة، حيث يقوم بِكَي الجزء المقطوع، وبهذا يُقْضى على ما تبقى من السم. وهناك طريقة أخرى لعلاج الملدوغ، صفتها أن تُذبح شاة، فتؤخذ الكرش وتفرغ من محتوياتها، ثم توضع على مكان اللدغة، حيث تمتص السم وتزيله من الجسم، ولايزال بعض الناس، إلى وقتنا الحاضر، يضع كرش الشاة على موقع الإصابة. أما بعض أهل البادية فعلاجهم لعضة الثعبان يتلخص في أنهم يهرسون الثوم ويربطونه على موقع العضة، كما أنهم يسكبون البنزين والكاز على مكانها. وقيل إن ثعباناً عض رجلاً في أحد أصابعه، فبتر الرجل أصبعه، وفئة منهم تقوم بتشريط موقع العضة.

وابن البادية يحذر دائماً كل من تربطه به صلة من ثلاثة أمور، فيقول «يا بني لا تنطح ثلاثة: الداب والسيل والجمل. فهذه الثلاثة لا يُنْطَحن، فلو واجهتها، فسوف تجد حتفك». ولذلك يوصف المتهور بأنه «يدخل على الحيايا

بجحورها»، وينصح رجل البادية كذلك ابنه بأن لا يؤذي (داباً) إن لم يؤذه، فإن آذيته قبل أن يؤذيك فسوف يؤذيك مثل ما آذيته، ولو لم يكن هو فسوف تؤذيك أنثاه أو أبناؤه. كما يقوم رجل البادية بدفن (الداب) في التراب إذا قتله حتى لا يجده أحد من أولاد الداب أو أقاربه فيؤذيه. وهذا اعتقاد خاطىء مصدره ما يشاع عند بعض الناس أن الثعابين السامة تتحرك في أزواج، وعند مقتل أحدهما فإن الآخر ينتقم لمقتل شريكه. وهذا اعتقاد غير صحيح، فلا حياة أسرية عند الثعابين ولا ارتباط زواج يجمعها، بل يلتقي الذكر والأنثى في موسم التزاوج للتلقيح، وينفصلان بعد ذلك ويمضي كل منهما في سبيله.

وهناك ما يسمى خرزة الداب، يستعملها أهل البادية لعلاج عضة الثعبان، ويتداولون في شأنها رواية تقول إنك إذا شاهدت ثعبانين أو حيتين في عراك ضع عليهما بطانية أو غطاء واتركهما لفترة من الوقت، ثم ارجع إلى مكانهما وارفع الغطاء، فإنك ستجد خرزة تسمى «خرزة الداب»، وربما كانت الخرزة نابا أو سنا سقط من أحد الدابين. ويقال إن طريقة علاج لدغات الثعابين بالخرزة، هي أن توضع الخرزة على مكان اللدغة، وتغطى ولا يظهر منها شيء، فتقوم بسحب السم من الجسم، فيخرج السم من مكان اللدغة، ولا يزال كثيرٌ من أهل البادية يملكون مثل هذه الخرزة ويعتقدون اعتقاداً جازماً بأنها تشفي من لدغات الثعابين بإذن الله، كما يقولون أيضاً بأن نوعاً من الحجارة يستخدم علاجاً ضد لدغات الثعابين، ومما يدعم هذا الاعتقاد القصة التي يتناقلها سكان المنطقة الشمالية مجموعة خرجت للقنص في مكان يدعى القرية في مدينة سكاكا في منطقة الجوف، ولدغ ثعبان أحد رفاقهم، فقصدوا أحد بيوت البدو القريبة وطلبوا من أهله مساعدتهم في علاج لدغة صاحبهم، فجاءتهم عجوز، وأعطتهم حصاة، وقالت لهم: خذوا هذه الحصاة وضعوها على مكان اللدغة، حيث تقوم بسحب السم من الجرح، وقد طلبت منهم أن يعيدوا لها الحصاة. وربما كان لهذه الحصاة أثر كبير في إنقاذ حياة صديقهم إلى أن أسعف. والشيء الذي يذكره هؤلاء الناس أن تلك الحصاة نادرة الوجود، ولا يعرفها إلا البدوي الخبير بهذه الأمور. وذكر بعض الأشخاص أنهم يعرفون واحدة من تلك الحصيات عند طبيبة شعبية موجودة في مدينة عفيف حربية الأصل، وحصيات

أخرى لدى طبيبة شعبية من أصل شمري في منطقة حفر الباطن، ولكن العلاج لا يتوقف عند هذا الحد فقط، حيث يظهر أثر اللدغ على شكل طفح على الجلد، إضافة إلى احتمال عدم القدرة على إخراج السم بالكامل من الجسم، لهذا يضع بعض الناس أنواعاً معينة من الأعشاب لغرض معالجة تلك القروح والطفوح، وإزالة النسبة الباقية من السم إن وجدت.

أما عن الطرق المتبعة عند سكان المنطقة الشرقية في علاجهم للشخص الملدوغ، فإنهم يطبخون الحرمل، ويعطون حساءَه للمصاب، كما يستخدم نبات الشنان، وهو نبات بري يجفف تحت أشعة الشمس لفترة طويلة، ثم يغلى مع الملح، ويوضع على مكان اللدغة.

ويروي كثير من أهالي المملكة أنَّ حيوان الورل إذا دخل في عراك مع الحية، فإنه يذهب إلى شجيرة قريبة من جحره ويتمرغ على هذه الشجيرة، ثم يعود لمزاولة العراك فتلدغه، ويعضها ثم يذهب بين فترة وأخرى إلى هذه الشجيرة إلى أن يقتل الحية. ويُروى أن أحد الأشخاص قطع هذه الشجيرة من مكانها، فلما جاء الورل بعد أن لدغته الحية، لم يجدها وظل يبحث عنها، ثم ما لبث أن سقط على الأرض ومات. ويقال إن الورل يحفر جحره بالقرب من هذه الشجيرة. وتعددت أسماؤها فهي الحمة عند سكان المناطق الشمالية، ويعتقد سكان المنطقة الشرقية بأنها الرمرام، لذا كانوا يستعملونها ضد لدغة الحية، وذلك بغلي أوراق هذه الشجيرة وجذورها في الماء، ثم تبرد ويسقى منها الشخص الملدوغ.

وينصحك أهل البادية إذا حاولت قتل الداب أن لا تأتيه من الأمام فهو أسرع منك، وسوف يلحق بك وكذلك لا تأتيه من الخلف، لأنه سريع الالتفاف والرجوع إلى الخلف، ولكن عليك أن تأتيه من الجنب وبهذا تلاحظ كل تحركاته، وتأخذ حذرك منه، مع تركيز النظر عليه، وعدم الغفلة عنه. ويحرص أهل البادية على إبعاد كل شيء ميت، قد يحتوي على لحوم أو شحوم، من مكان نزولهم حتى لا تجلب إليهم الثعابين والحيوانات المفترسة، كما يحرصون على حفظ الأطعمة خاصة اللحوم لكي لا تأتي إليها الثعابين وتنفث فيها من سمومها.

أما أهالي المنطقة الجنوبية الغربية من المملكة فيعتقدون أن الحية قصيرة ذات بطن عريضة ولون أبيض أو أغبر، أما الحنش فهو أطول وأنحف. وكانوا

يخشون على مواشيهم من الثعابين أكثر من خوفهم على أنفسهم لأنها تسبب خسارة اقتصادية لهم. ويقتلونها بسهولة إذا كانت في بيوتهم، أو حول الآبار التي يسقون منها دون خوف، بعصا طويلة قوية، وكانوا لا يحسون بها أحياناً إلا وقد سلخت جلدها في سقوف البيوت القديمة. حينئذ يرونها ويقتلونها. وكانت الثعابين تسقط على رؤوس الرعاة، وعلى أكتافهم، وهم يرعون الغنم فيهربون منها سريعاً ويدعونها، ولا يحاصرونها أبداً، ويحذر الأهل أطفالهم إذا رأوا الحية تبيض أن يبتعدوا سريعاً عنها، لأنهم يعتقدون بأنها سوف تؤذيهم آجلاً أو عاجلاً.

وقد تلدغ الثعابين الثيران مما يسبب خسارة كبيرة جداً لسكان القرى، وهم يعتقدون أن الثعبان الذي له آذان ما هو إلا جن، ويقولون إنه حارس على كنز يوجد في ذلك المكان، ولا يقربونه أبداً. وكانوا إذا أرادو طرد ثعبان من مسكنه أخذوا روث البهائم، ودخنوه على الجحر، فيهرب الثعبان من الجحر ولا يعود إليه.

ويقال إنه في قرية تنومة بني شهر، في جبل يسمى جبل منعاء، يوجد ثعبان وحية دعا عليهما الرسول ﷺ حتى تحجرا في مكانهما. وهما موجودان على صخرة كبيرة، وجسداهما بارزان من على الصخرة. ومن المعتقدات حول الثعابين أنه إذا شرب الرجل من ماء سبق أن شربت منه الحية، فإن بطنه تنتفخ، ويبقى على قيد الحياة أياماً ثم يموت. وكان الرجل إذا أخذ نبات الشذاب، ودقه واغتسل به، بعد أن يلدغه ثعبان أو عقرب أو دبور يشفى الجلد والجرح معاً. وكانوا يدخنون بيوتهم بحرق ورق الشذاب فيها وقت الشتاء، لكي تهرب منها العقارب والحيات. ومن المعتقدات الشعبية عن الثعابين والعقارب أنها تتخلص من سمومها ليلة الجمعة، كما أن بعض الناس يعتقد خطأً أن العقارب تأخذ سمومها من الثعابين، وقد استخدمت بعض أنواع الحيات في العلاج، فهناك رجل كان يصطاد هذه الحيات ويضعها في إناء به زيت يغلي، وبعد أن تذوب الحيات في الزيت، يطلي أبله المصابة بمرض الجرب بهذا الزيت.

ويطلق أهالي المنطقة الشرقية اسم الحية على معظم الثعابين مهما كان نوعها. ويعتقدون بأن هناك ثعبان يسمى المخيط، وهو من الثعابين القافزة وله عدة ألوان منها الأخضر والرمادي. وهو يثقب أي جسم يواجهه في طريقه إلا النخلة

فإنه لا يستطيع اختراقها ويموت منها. وهو اعتقاد خاطئ لا أساس له. وهذا النوع يعيش في المزارع، ويحذره الفلاحون حذراً شديداً.

وهناك حية يطلق عليها أهالي المنطقة الشرقية اسم راعية البيت، ويتداول أهالي القطيف وبلدة القديح قصصاً كثيرة عن هذه الحية، فهي أفعى غير سامة، ذات لون أغبر بها نقط سود، ولم يحدث أن اعتدت هذه الحية على أحد، وهم يتركونها وشأنها، ولا يؤذونها اعتقاداً منهم بأنها تحرس البيت. ويستخدم سلب الأفعى، وهو الجلد القديم الذي تسلخه بين فترة وأخرى، في علاج مرض التابعة، وهذا المرض، على حد قول بعض أهالي الشرقية، يشبه مرض الصرع وأكثر ما يصيب الإناث.

ومن الأمثال الشعبية التي يتداولها سكان القرى في المملكة عن الثعابين «إذا قرصك البثن فَوَلّم الكفن». ويعتقد بأن البثن من أخطر الثعابين الموجودة في المملكة على الإطلاق وقد يكون هو الأفعى المقرنة حسب وصف بعض الأهالي له. وكذلك مثل آخر يقول «اللي يقتلني ولا يدفني، عظامي تكفي عني» وهو تحذير لمن يقتل الحية، ولا يدفن عظامها لأن العظام، خاصة الأنياب، قد تصيب القدم بالتسمم إذا وُطِئ عليها. و«من قرصته الحية خاف من الحبل» أو «القريص يخاف من جرّة الحبل» وهذا دلالة على أن الشخص الذي لدغته حية وعانى من آلام اللدغ يخاف من أي شيء يشبه الحية شكلاً حتى الحبل. و«تموت الأفاعي وسمها في نحورها»؛ يقول حميدان الشويعر:

تموت الافاعي سمّها في نحورها
وكم قريصٍ مات ما شاف قارصه

يضرب المثل لموت الأعداء بحقدهم وغيظهم دون أن تتاح لهم الفرصة للانتقام. وقالوا «أبعد عن الداب وشجرته» ويضرب لطلب السلامة. وقالوا «حيّة راسها عند ذنبها» ويضرب لمن لا يؤمن شره لأن من عادة الحية أن تجعل رأسها عند ذنبها لتحمي نفسها. يعتقد العرب أن ليس في الحيوان شيء أصبر على الجوع من الحية، فإن هرمت صغرت في بدنها، ولم تشته الطعام، فلها في الصبر في أيام الشتاء ما ليس بالقليل؛ وقد قال الشاعر:

فابعث له من بعض أعراض اللمم
لميمة من حنش أعمى أصم
قد عاش حتى هو لا يمشي بدم
فكلما أقصد منه الجوع شم

ويقول الشاعر قولاً آخر يصف انقطاع الحية عن الطعام:

داهية قد صغرت من الكبر
صل صفا ما ينطوي من القصر
طويلة الإطراق من غير خفر
كأنما قد ذهبت بها الفكر
جاء بها الطوفان أيام زخر

وربما كان الخوف من الحية أكثر وقعاً من عضتها؛ يروى أن رجلاً نام تحت شجرة، فتدلت منها حية فعضت رأسه فانتبه، وحك رأسه وتلفت، فلم يجد شيئاً فوضع رأسه واستمر في نومه، وقال له بعض من رأى الحية وهي تعضه في رأسه: إن حية نزلت عليك من الشجرة حتى عضت رأسك، فلما جلست تقلصتْ وتراجعتْ عنك. ففزع فزعةً، وصرخ صرخةً كانت فيها نهايته.

والعرب تضرب المثل في الظلم بالحية فيقولون «أظلم من حية»، لأنها لا تحفر لنفسها جحراً، فكلما قصدت جحراً هرب منه ساكنوه من الدواب الأخرى، وتركوه لها. قال مضرس بن لقيط يشكو من ظلم قومه له:

لعمرك إني لو أخاصم حية
إلى فقعس ما أنصفتني فقعس
إذا قلت مات الداء بيني وبينهم
سقى حاطب منهم لآخر يقبس

كما أن شكل الأفعى وما تحمله من السم الزعاف يثير الهلع والخوف في النفوس، لذا فقد استخدمت لفترة من الزمن رمزاً للقوة. وكانت العرب تصف الرجل المنيع الجانب الداهية، بحية الأرض؛ قال ذو الأصبع العدواني يصف ما وقع بين قومه من بأس وقتل بعضهم بعضاً:

عذير الحي من عدوا
ن كانوا حية الأرض
بغى بعضهم بعضا
فلم يبقوا على بعض

وضرب العرب المثل في الحذر بالحية، وأنها لا تهزم بالقوة بل بالرفق واللين، ومما أنشده الأصمعي:

لم أر مثل الرفق في لينه
أخرج للعذراء من خدرها
من يستعن بالرفق في أمره
يستخرج الحية من جحرها

ومما رواه أحد المسنين: أنه جاء يوماً لإيقاظ ابنه الوحيد وهو نائم بعد الظهر تحت شجرة العنب قرب البئر، ولما أقبل رأى ثعباناً قد تسلل بين ثوب الابن وجلده ورأسه خارج فوق الصدر، وصعق الوالد ولم يدر ماذا يفعل إذ أن أي حركة من الابن معناها هلاكه، وهداه تفكيره إلى أن يتسلل برفق ويحضر بعض أوراق الشجر التي تخرج دخاناً ولا تشتعل،

واختار أقرب نقطة من الثعبان لا تثيره في اتجاه الريح وأحرق الأوراق، ولما تسلل الدخان إلى الثعبان تسلل الثعبان تاركاً الولد، وقام الوالد بإيقاظه وهو غير مصدق لما حدث.

وكانت العرب عندما تتهيأ للحرب تصف لباسها بلباس الأساود، وهي نوع من الثعابين؛ يقول قيس بن الخطيم في ذلك:

متى تلقوا رجال الأوس تلقوا
لباس أساودٍ وجلود نمر

وقال خداش بن زهير في هذا المعنى:

ونحن إذا ما الخيل أُدرك ركضها
لبسنا لها جلد الأساود والنمر

وكان أهل البادية يشوون الحيات ويأكلونها، إلا أنهم قد يتهاجون بأكلها في بعض الأحيان؛ كما قال الشاعر:

فإياكم والريف لا تقربنه
فإن لديه الموت والحم قاضيا
هم طردوكم عن بلاد أبيكم
وأنتم حلول تشتوون الأفاعيا

أما عن ضرورة استئصال شأفة الشر فيقول فيها الشاعر:

لا تقطعنْ ذنب الأفعى وترسلها
إن كنت شهما فأتبع رأسها الذنبا

ومن معتقدات العرب القديمة أن الحية شديدة الحقد، لا تترك ثأرها أبداً؛ أورد الدميري حكاية تقول: إن أخوين خرجا مسافرين، فنزلا في ظل شجرة بجنب صفاة، فلما دنا الرواح خرجت لهما من تحت الصفاة حية تحمل ديناراً، فألقته إليهما، فقالا: إن هذا لمن كنز هنا، فأقاما ثلاثة أيام، وهي في كل يوم تخرج لهما ديناراً، فقال أحدهما للآخر: إلى متى نتظر هذه الحية؟ ألا نقتلها ونحفر عن هذا الكنز فنأخذه؟ فنهاه أخوه، وقال ما تدري لعلك تعطب ولا تدرك المال! فأبى عليه وأخذ فأساً ورصد الحية حين خرجت، فضربها ضربة جرح رأسها ولم يقتلها، فبادرت إليه الحية فقتلته، ورجعت إلى جحرها فدفنه أخوه، وأقام حتى إذا كان الغد خرجت الحية معصوباً رأسها، وليس معها شيء فقال: يا هذه والله إني ما رضيت ما أصابك، ولقد نهيت أخي عن ذلك فلم يقبل، فهل لك أن نجعل الله بيننا على أن لا تضريني ولا أضرك وترجعي إلى ما كنت عليه أولاً؟ فقالت الحية: لا، قال: ولم؟ قالت: لأني أعلم أن نفسك لا تطيب لي أبداً وأنت ترى قبر أخيك، ونفسي لا تطيب لك أبداً وأنا أذكر هذه الشجة. وفي رواية أخرى أنها قالت له «كيف أعاودك وهذا أثر فأسك» فأصبح مثلاً يضرب لمن لا يفي بالعهد.

وقبيلة الرولة تأكل الحيات الطوال، وهم يقسمون الأفاعي إلى حية وداب؛ والأولى قصيرة، أما الداب فهو كل أفعى طويلة سامة كانت أو غير سامة، والحيات عندهم أنواع، إلا أن أهمها: البترا والحضف، اللتان تستوطنان الصحراء الرملية. ويستخدم الجلد الرقيق (السلب) الذي تخلعه الحية في علاج أمراض العيون.

ومن أشهر الحيات في التاريخ: الحية التي وضعتها كليوباترا ملكة مصر القديمة على صدرها فلدغتها فماتت، حتى لا تقع أسيرة بيد عدوها أوكتافيوس الذي أصبح الأمبراطور أوغسطس فيما بعد. ومما يذكر أن كليوباترا كانت تزين تاجها بالحية، ويعتقد أنها ثعبان الكوبرا. أما عن سبب اختيارها لهذا الثعبان رمزاً للقوة، فلما يعرف عنه من الأنفة والكبرياء؛ فهو من الثعابين التي لا تزحف بكامل جسمها على الأرض، بل ترفع رأسها وتنفخ عنقها مكونة ما يعرف بالقلنسوة، مما يضفي عليها منظراً مهيباً مخيفاً، لذا أطلق عليها لقب ملكة الثعابين.

ويروى أن جعفر بن الفضل بن الفرات، كان يهوى النظر إلى الأفاعي والحيات والعقارب وما يجري مجراها من الهوام، وكان في داره قاعة لطيفة مرخمة فيها سلل الحيات ولها قيِّمٌ وحاوٍ من الحواة ومعه مستخدمون، وكان كلٌ حاوٍ في مصر يصيد له ما يقدر عليه، والوزير يشجعهم ويبذل لهم العطاء الجزيل حتى يجتهدوا في تحصيلها. ويذكر التاريخ أن سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام قد خاطب قومه اليهود بقوله: ياأولاد الأفاعي كما وصف اليهود كثيراً من أنبيائهم بأنهم أبناء الأفاعي. ومما قيل عن سبب إطلاق لقب تأبط شراً على الشاعر الجاهلي الفحل ثابت بن جابر أن أمه قالت له يوماً: كلُّ أخوتك يأتيني بشيء إلا أنت، فقال لها سآتيك الليلة بشيء، ومضى فصاد أفاعِيَ كثيرة، وأتى بها أمه في جراب متأبطاً له وألقاه بين يديها، ففتحته فتساعين في بيتها، ففزعت وخرجت، فسألتها جاراتها: ماذا أتاك به ثابت؟ قالت أتاني بأفاع في جراب، فقلن كيف حملها؟ قالت تأبطها، قلن: لقد تأبط شراً. فلزمه ذلك.

الثعابين الأرضية خطر على الإنسان، خاصة على أولئك الذين يعيشون في محيطها من أبناء البادية. وقد ظل الصراع مستمراً بين هذه الكائنات وبين الإنسان على مر العصور، ونتجت عن ذلك

قصص شتى تتناقلها الأجيال، وأكثر هذه القصص متعلقة بالجن، حيث من المعتقد أن الجن تتجنس على هيئة ثعابين، وقد نهى الرسول ﷺ عن قتل الثعابين إلا بعد أن تُحذَّر ثلاثاً؛ ومن القصص في هذا المجال أن رجلاً قتل ثعباناً، وبعد فترة أخذت الجن ترجمه بالحجارة، حتى قتلت ابنه.

ومن أشهر الأساطير المعروفة في هذا المقام، ويتداولها كثير من كبار السن، قصة داب ذريع. وتتلخص في أن رجلاً من قبيلة حرب، من فخذ الحنانية، قتل ثعباناً كان يتلبسه جن، وطلبت ابنة هذا الجن الثأر لأبيها حتى وجدت الرجل فوق ظهر بعيره في إحدى القوافل، فأخذت في التقدم إليه بسرعة حتى ظهر لها غبرة شديدة، وتخطت مؤخرة القافلة حتى وصلت إلى الرجل وهو فوق بعيره، وقفزت إليه ولدغته فمات، وبعد ذلك اتجهت إلى جبل بالقرب من البجادية على بُعد ٤٠٠ كم من الرياض على طريق الحجاز القديم. ويعتقد كثيرٌ من الناس أن هذه الحية ما زالت إلى يومنا هذا في مغارة لا يدخلها إلا شخص يزحف على بطنه، وبها ماء عذب تكون هي بالقرب منه دائماً، وتقتل كل شخص يحاول التعرض لها بسوء. والأهم من ذلك كله أنها تقتل كل شخص من قبيلة الحنانية يأتي إلى هذا الجبل، وهذا كله وهم لا أساس له من الصحة.

وعلى هذا النمط الأسطوري الوهمي نفسه، وهو الأخذ بالثأر، هناك كثير من الحوادث التي يرويها كبار السن، ومنها حية النار، وهي حية ظهرت في منطقة أحد بطون عتيبة، هي منطقة عفيف في هجرة مسرحة على بعد ٥٠٠ كلم من الرياض على طريق الحجاز القديم، وكانت هذه الحية تخرج من فمها كرات من نار أثناء المغيب، وبسبب هذه النار تحترق خيام هذه القبيلة وبيوتها وسياراتها، واستمرت على هذا الحال لمدة يومين كانت كافية لإحداث دمار كبير في الهجرة وأهلها، واتضح أن هناك حية كان يتلبسها جن ذبحت على أيدي أطفال الهجرة.

ويروى كذلك أنه في إحدى القرى التابعة للمدينة المنورة، حدث انتقام الجن من صاحب دار أحرق ثعباناً كان يتلبسه جن عن طريق الخطأ، حيث رمى بسيجارته على سجاد مجلس بيته، فشب حريق في المجلس كان ضحيته هذا الثعبان الذي كان يعيش في البيت، وبعد ذلك بدأت سلسلة من المتاعب لصاحب البيت، إذ أحرق منزله كله على فترات، وأفسد كل طعام يكون بين أيدي أهل

البيت أو من يدخل البيت، تارة بظهور براز في الصحون فجأة، أو ظهور ثعبان وسط الصحون ثم اختفاؤه ليسبب الرعب. واستمر هذا الوضع حتى أحضر صاحب البيت بعض المشايخ وبدأوا بالقراءة على أهل البيت، وبعد ذلك انقطع شرها بإذن الله.

ومن القصص الشعبية الأسطورية التي تناقلها الناس حادثة غريبة، وقعت في منطقة شقراء. فقد لاحظ الناس موت جميع الأشخاص الذين اشتروا أحد البيوت، وكانت الوفاة تحدث لهم ومن معهم أثناء نومهم في هذا المنزل، وبالتحديد في الليلة الأولى من سكنهم فيه، مما تسبب في عزوف الناس عن شراء هذا البيت، وفي إحدى المرات طلبت امرأة فقيرة شراء هذا البيت وأطفالها معها، وأحضرت وعاء الماء (الزير) ثم أدخلت أولادها إحدى الغرف، وأنامتهم وبقيت هي ترقب فناء المنزل من بُعْد. وفي منتصف الليل شاهدت حية كبيرة تخرج من بيت الدرج، واتجهت إلى الماء فولجت فيه، وأخذت تخوض به، ثم قامت بشرب الماء، وبعدها أخرجته من جوفها، وأخيراً خرجت من الزير، وفي اليوم التالي منعت الأم أطفالها من الشرب من الماء الموجود في الزير إلى منتصف الليل، حيث أتت الحية نفسها ومن نفس المكان ودخلت فيه وشربت من الماء فماتت، وهكذا انتهى شرها وكسبت المرأة الفقيرة البيت بثمن زهيد.

ومن المعتقدات الشعبية أن الثعابين لا تدخل بيتاً ولا تضر أهله إذا ذبح صاحبه شاة عند عتبة الباب، وجمع دمها، ودار به حول أسوار البيت، ثم حرقه، ورمى بالشاة بعد تقطيعها في مكان بعيد عن قريته لتأتي الثعابين وتأكلها، فيتقي بهذه الطريقة شرور الثعابين. أما في الوقت الحاضر فقد ظهرت طرق أخرى مثل سكب البنزين أو الديزل حول المكان وبهذا تهجره الثعابين، ويذكر بعض الأهالي أن وضع قطع من البصل والثوم في الفرش تؤدي إلى طرد الثعابين. ويعتقد أهالي البادية أنّ شر الثعابين يمكن أن يُتقى بدهن الجسم بزيت القطران، لأن الثعابين تكره رائحته وتتجنب من يدهن جسده بهذا الزيت.

وفيما يلي أهم عوائل الثعابين الموجودة في المملكة العربية السعودية.

عائلة الأفاعي

تضم هذه العائلة أخطر أنواع الثعابين التي تمتاز برأسها المثلث، وجسمها

الغليظ، وذيلها القصير، وعنقها الدقيق. وتضم عائلة الأفاعي أنواعاً أرضية تعيش في الصحارى، وهي تُعرف بوجود الأنياب المذببة الإبرية الأمامية المتحركة في فكها العلوي، التي يكون اتجاهها إلى الخلف عادة، ولكنها تنتصب إلى الأمام في حالة الهجوم ولدغ فريستها، وتتصل هذه الأنياب بغدة السم. وتهاجم سموم الأفاعي الجهاز الدموي فتحطم خلاياه وتؤدي إلى تجلطه، وقد تصل نسبة الوفيات إلى ٢٠٪ من الملدوغين. تتغذى الأفاعي ببعض الفقاريات الصغيرة مثل القوارض، وهي ليلية المعيشة إلا القليل منها، وقد تشاهد خلال فترات الصباح الباكر أو قبيل غروب الشمس بقليل، ويوجد من الأفاعي أربعة أنواع تستوطن مناطق مختلفة من المملكة، هي الحية المقرنة أو أم جنيب، والأفعى النافثة، وأفعى السجاد الشرقي، وحية الطفي المنشارية.

أم جنيب. وهي الحية المقرنة وتسمى أم قرين. وهي من أخطر الأفاعي في المملكة، وتنتشر في معظم المناطق، ويساعدها في ذلك المناخ الصحراوي، وكبر رقعة المناطق المناسبة لها حيث يعيش هذا النوع من الأفاعي في المناطق الرملية المفتوحة، والكثبان الرملية، وقد تعيش أيضاً في المناطق الصخرية، ويتراوح طول الأفعى البالغة من هذا النوع من ٤٤ إلى ٥٥ سم، وأما الأطوار غير البالغة

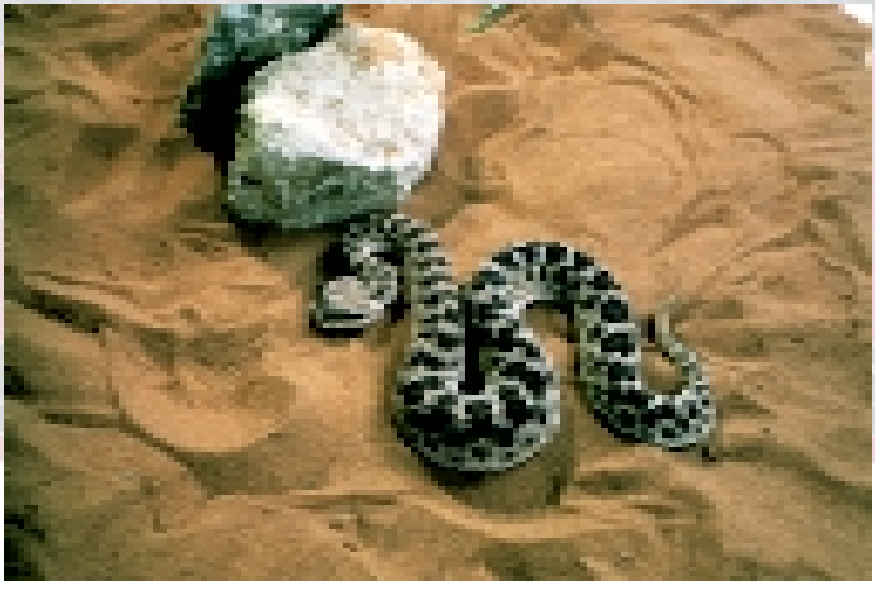

أم جنيب من أخطر الأفاعي

فأطوالها تتراوح من ٢١ إلى ٢٧ سم، وسميت هذه الأفعى بالمقرنة لوجود زائدتين قرنيتين فوق رأسها كأنهما قرنان صغيران، لكن بعض أفراد من هذا النوع ليس لها قرون، وتمتاز أم جنيب كجميع أنواع هذه العائلة برأس مثلث ورقبة دقيقة وذيل قصير وجسم غليظ. وتختلف ألوان أفرادها بين الأحمر الفاتح إلى البني، حسب الموطن الذي تعيش فيه، وتمتاز ببقع بنية داكنة على الجهة الظهرية، وهذا النوع من الثعابين سام جداً، لها أنياب مدببة إبرية أمامية متحركة في مقدمة الفم، ولا تستغرق إلا جزءاً من الثانية عند اللدغ، وذلك للسرعة العالية لحركة الناب أثناء إخراجه ولدغ الفريسة، وهنا تكمن خطورتها.

تتغذى هذه الأفعى ببعض أنواع الفقريات، خاصة القوارض التي تلدغها وتتركها حتى تموت ثم تبتلعها كاملة. وهي ليلية المعيشة، لكنها قد تخرج قبيل الغروب بفترات قصيرة، كما قد تشاهد خلال فترات الصباح الباكر، وتخلد إلى النوم عقب فترات النشاط الليلي، وتقطع هذه الأفعى مسافات طويلة خلال الليل، فقد لوحظ عند تتبع آثارها في بعض المناطق أنها تقطع مسافات قد تصل إلى أكثر من كيلومترين، كما أنها تدفن نفسها في التراب بحيث لا يظهر منها إلا رأسها وقرناها، فتحسبها الطيور ديداناً فتقع عليها، وسرعان ما تنقض الأفعى عليها فتقتلها وتلتهمها. وهذه الأفعى، مثل باقي أنواع الثعابين، لا تهاجم الإنسان ما لم يؤذها أو يتعرض لها. وقد تلدغ إنساناً بدون قصد، كأن يطأ عليها فتلدغه. وتشاهد دائماً وهي تخرج لسانها المشقوق الذي تستخدمه للتعرف على ما حولها، فتستطيع به التقاط المتغيرات الكيميائية المختلفة. ولا تخرج هذه الأفعى من فمها أصواتاً، ولكنها عند الاقتراب منها تصدر صوتاً تحذيرياً كفحيح الأشجار ينتج عن احتكاك حراشيف جسمها بعضها ببعض. وتمتاز هذه الأفعى بحركتها الجانبية ومن هنا جاء اسمها، لذلك يسهل التعرف على الأماكن التي توجد بها إذ غالباً ما تُرى آثارها على الرمال خلال فترات الصباح بعد تحركاتها الليلية، وقبل هبوب الرياح التي تسبب زحف الرمال وطمس تلك الآثار.

وتعيش الأفراد المقرنة وغير المقرنة، من الذكور والإناث البالغة والصغار، في البيئة الواحدة، إلا أنه لوحظ أن بعض المناطق تمتاز بانتشار فئة ذات القرون بها أكثر من غيرها، مثل منطقة جازان. أما

في منطقة الرياض فتوجد الفئتان في البيئة نفسها.

وتدخل هذه الأفعى خلال الشتاء في مرحلة من الكمون، أو ما يسمى السبات الشتوي، لأنها لا تستطيع مقاومة البرد الشديد، وتخرج من مرحلة السبات الشتوي في الربيع، وتبدأ فترة التزاوج حيث تتجمع الذكور والإناث معاً. وفي هذا الموسم تزداد خطورتها وتكون لدغاتها مميتة لزيادة تركيز السم في غدة السم في فكها العلوي. ولا تحفر هذه الأفعى أنفاقاً لها بل تلجأ إلى أي جحر تجده أمامها من جحور القوارض في بيئتها.

وأغلب حالات الوفاة من لدغات الثعابين التي تحدث في المملكة سببها الأفعى المقرنة، وقد يرجع ذلك إلى انتشارها الواسع. ويهاجم سمها الجهاز الدموي ويدمر خلايا الدم، وتقدر كمية السم اللازمة لقتل إنسان وزنه ٧٠ كجم بحوالي ٤٠ إلى ٥٠ ملجم. وهي تحقن كمية من السم تقدر بحوالي ١٠٠ إلى ١٨٠ ملجم في العضة الواحدة.

الأفعى النافثة. تسمى الأفعى النوامة في بعض المناطق، لأنها تنام في المسطحات المائية خلال الظلام، مما قد يشكل خطراً على الأشخاص الذين يسعون ليلاً، وتسمى في الطائف أم شكوى أو أم أشكى، أما في جازان فتسمى بالثروان. ويقتصر وجود هذه الأفعى على المنطقة الجنوبية الغربية، مثل أبها والباحة، حيث يكون معدل سقوط المطر عالياً. وقد توجد على ارتفاع يصل إلى أكثر من ٢٠٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر في مرتفعات جبال السروات.

جرم هذه الأفعى كبير جداً، إذ يصل طولها إلى حوالي متر، ولها رأس مثلث كبير، وجسم غليظ، وذيل قصير، ولونها رمادي تعلوه بقع بنية أو سوداء. ومقدمة الرأس سوداء، وعلى الذيل بعض الحلقات السود، ولها زوج من الأنياب الإبرية على جانبي الفك العلوي، وهي ذات سمية عالية. وتحدث اللدغات غالباً عندما يطأ الإنسان عليها في الليل، دون رؤيته لها. يهاجم سمها الجهاز الدموي، وتقدر كمية السم اللازمة لقتل إنسان وزنه ٧٠ كجم بحوالي ١٠٠ ملجم تقريباً. ويمكن لها أن تفرز حوالي ١٠٠ إلى ٣٥٠ ملجم من السم في العضة الواحدة.

وهي تكثر في البيئات الصخرية، ولونها مطابق للون البيئة التي تعيش فيها، وتتغذى بالطيور والضفادع والسحالي والأرانب الصغيرة (الخرانق)

الأفعى النافثة أو النوّامة

والأسماك. ويعتقد بأنها لا تبتعد كثيراً عن جحرها، ولكنها تنتظر الفريسة حتى تقترب منها، فتنقض عليها وتلتهمها. وتعيش الأفعى النوامة وثعبان الكوبرا في البيئة ذاتها. وربما تقوم الكوبرا بافتراس الأفعى النوامة، إلا أن أشد الأعداء خطورة عليها هو الإنسان، الذي يقتلها حين مشاهدته لها نظراً لحجمها الكبير، اللافت للنظر.

أفعى السجاد الشرقي. لا يعرف لها اسم محلي معين إلا أن بعض الأهالي يسمونها الرقطة، أو الرقطاء، ويقولون في دعائهم: «يامال الحية الرقطا». ويصف الناس الإنسان الشرير بأنه حية رقطاء؛ يقول حميدان الشويعر:

من يامن الرقْطا على الساق نادم
ومن يامن الضّد القديم يهان

وتسمى علمياً بأفعى السجاد الشرقي، لأن على ظهرها بقعاً فاتحة اللون، تشبه الأشكال الهندسية للسجاد الصيني. وتعيش في شمال المملكة وغربها ووسطها، وهي صغيرة الحجم إذ يبلغ طولها حوالي ٧٥ سم. وعلى رأسها تاج يشبه الصليب. وقد تقذف السم إذا حوصرت، حيث يتطاير السم من فمها، لكنه لا يصل إلى قوة اندفاع السم الذي يبخه ثعبان الكوبرا البخاخ، الذي يستطيع أن يبخ السم إلى مسافة مترين تقريباً، حتى أنه يصيب العينين. لونها بني محمر يشبه لون البيئة التي

أفعى السجاد الشرقي وبيضها

تعيش بها. وهي صحراوية المعيشة وتفضل المناطق الجبلية. وتعدّ أكبر عدو للإنسان إذ إن سمها قاتل، وضحاياها كثيرون، خاصة في الهند. وسمها من الخطورة بحيث يقتل الحمامة في ٦٠ ثانية، والكلب في أربع ساعات. تتغذى هذه الأفعى بالفئران والسحالي والعقارب. وفي المملكة نوع آخر قريب من نوع هذه الأفعى، هو حية الطفي المنشارية، له من الصفات والطبائع ما يشبه أفعى السجاد تقريباً، لكنه منفصل جغرافياً إذ لا يوجد إلا في المنطقة الجنوبية الغربية من المملكة. وهذان النوعان من أخطر أفاعي المملكة، وقد يحتلان المرتبة الثانية، بعد الأفعى المقرنة، من حيث معدل الوفيات بسبب لدغاتهما. وتُقَدَّر كمية سم أفعى السجاد الشرقي القاتلة للإنسان بحوالي ٣ إلى ٥ ملجم. وتقدر كمية السم التي تفرزها في العضة الواحدة بحوالي ١٠٠ إلى ١٣٠ملجم.

حية الطفي المنشارية. وتسمى الرقطة في المنطقة الجنوبية الغربية من المملكة (عسير وبلاد غامد وزهران وغيرها)، حيث توجد فيها بأعداد ليست بقليلة. تمتاز هذه الأفعى السامة ببوز قصير مستدير ورأس مثلث، وجسمها أسطواني والذيل قصير. يصل طول الأفعى البالغة إلى ٧٢سم، وطول الذيل إلى ٧سم.

لون الظهر ضارب إلى الحمرة أو الغبرة، عليه خطوط مستعرضة بيض مصفرة، مكونة بقعاً سوداً محمرة، ولون البطن يميل إلى البياض وبه نقط مغبرة. وهي من الأفاعي الخطرة السريعة الحركة، وقد تلدغ أكثر من مرة بسرعة متناهية. سمها يهاجم الجهاز الدموي، وتقدر كمية السم القاتلة للإنسان بحوالي ٣ إلى ٥ ملجم.

تكثر في البيئات الرملية المغطاة ببعض الأعشاب والحشائش. وهي ليلية المعيشة، تتغذى بالفئران والطيور والسحالي والضفادع والعقارب والديدان.

عائلة الكوبرا (الصلال)

تضم ثعابين سامة وأخرى غير سامة قد تصل إلى ١٨٠ نوعاً منتشرة في المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية القديمة والحديثة. وتنفرد الثعابين السامة لهذه العائلة بخاصية سم قريبة لما في الثعابين المائية السامة، ولها أنياب أمامية مذببة في الفك العلوي، وأهم ما يميز أفراد هذه العائلة حجمها، إذ قد تصل في الطول إلى عدة أمتار. وأهم أنواعها أفعى الكوبرا التي لها القدرة على تحريك ضلوعها باتجاه جانبي العنق، فيما يسمى بالقلنسوة السوداء، التي تخيف بها أعداءها. وينصب تأثير سم هذه العائلة غالباً على الجهاز العصبي، ويكون عادة مصحوباً بقليل من الآلام والورم في مكان العضة، وقد يموت المصاب نتيجة لشلل الجهاز التنفسي خلال ١٢ ساعة إذا لم يعالج بالمصل المناسب، وتتغذى ثعابين الصلال بالضَّبَاب أو الضِّبان، (جمع ضَب) والطَيور الصغيرة، والثدييات الصغيرة، والضفادع. وتبلغ نسبة الوفيات من الأشخاص المصابين بسموم هذه الثعابين، حوالي ١٠٪. وفي المملكة العربية السعودية نوعان من عائلة الصلال هما الصل الأسود، الذي يستوطن منطقة نجد وما جاورها، والكوبرا العربية.

الصل الأسود. ويسمى عادة الصل، وتعني الصل الأسود. وهو الاسم الشائع في معظم مناطق المملكة. ويسمى أحياناً الهام ويقتصر وجوده على المناطق الوسطى والشرقية والشمالية من المملكة. ويعدّ من الثعابين النادرة التي لا يمكن رصدها ومشاهدتها بسهولة. ويمتاز بلونه الأسود القاتم، ورأسه العريض، والجسم طويل أسطواني، والذنب قصير دقيق، وهو ليلي المعيشة، ويفضل البيئات الصحراوية التي تكثر بها السهول حيث جحور الضبان، وهو يقضي معظم أوقاته

الصل الأسود، يتميز بلونه الأسود وهو سام

في هذه الجحور، وتعد صغار الضبان غذاء مناسباً له. ويختلف الصل عن الكوبرا العربية بعجزه عن نفخ عنقه، لتكوين القلنسوة التي تشتهر بها الكوبرا العربية. وهو من الثعابين الشرسة الشديدة السمية، ذو أنياب أمامية دقيقة في الفك العلوي. وسمه يؤثر على الجهاز العصبي ويسبب الشلل للإنسان، وقد تحدث الوفاة إذا لم يعالج المصاب. ويبالغ الكثير من أهالي المملكة في وصف طول الصل وضخامته، إلا أنه في الحقيقة لا يتجاوز المتر والنصف.

الكوبرا العربية. وتسمى الناشر، ويطلق عليها أهالي المنطقة الجنوبية الغربية اسم الحنش أو الداب وأحياناً «أم حوى». وتعيش في المنطقة الجنوبية الغربية من المملكة، كما تعيش في جنوب المدينة المنورة، وهي ثعبان نهاري المعيشة، يعيش في المناطق الزراعية، ويرى أحياناً بالقرب من السدود والتجمعات المائية، فهو يحسن السباحة. يتغذى بالقوارض، والسحالي، والضفادع، والطيور.

والكوبرا ثعبان كبير الحجم، الرأس في ضخامة العنق والعيون كبيرة، وقد يصل طوله إلى مترين تقريباً، ذو ألوان مختلفة، فقد يكون الظهر أغبر، والبطن ذا لون يميل إلى الصفرة، أو قد يكون الظهر مخضراً، والبطن يميل إلى الاصفرار، وله زوج من الأنياب الكبيرة

الكوبرا العربية

السامة، على كلٍّ من جانبي الفك العلوي، تليها أسنان صغيرة، يتراوح عددها من ١ إلى ٣. ويحتوي الفك السفلي على أسنان طويلة، ولهذا الثعبان المقدرة على نفخ رقبته مكوناً قلنسوة تضفي على شكله هيئة مخيفةً، وهو من الثعابين الخطرة الشرسة، وقد يهاجم الإنسان، إذا ما استُفِزَّ، بعكس الثعابين الأخرى التي تهرب عند وقوع الخطر. سمه قاتل للإنسان، يهاجم الجهاز العصبي، كمثيله الصل، وتبلغ كمية السم اللازمة لقتل إنسان متوسط الحجم حوالي ١٥ إلى ٢٠ ملجم. وتقدر كمية السم في العضة الواحدة بحوالي ٢٠٠ إلى ٣٥٠ ملجم. والكوبرا من الثعابين البيوضة، حيث تضع بيضاً بحجم بيض الحمام. وتعتمد صغار الكوبرا على نفسها من غير حاجة إلى رعاية الأم.

عائلة الثعابين الحقيقية

تضم هذه العائلة حوالي ثلثي أنواع الثعابين المعروفة في العالم وتشمل أنواعاً سامة وأخرى غير سامة. والأنواع السامة ذات أنياب خلفية الموقع، أي في مؤخرة الفك العلوي، لذا فإنها لا تشكل خطراً كبيراً على الإنسان، مقارنة بتلك الأنواع الأمامية الأنياب. أما الأنواع غير السامة من هذه العائلة، فليس لها أنياب على الأطلاق، بل أسنان صغيرة، وتعيش ثعابين هذه العائلة في جميع البيئات في

العالم، وهي تتغذى بالطيور، والقوارض، والضفادع، والأسماك، والسحالي، وأجسامها متطاولة، والرأس مميز عن العنق، والذيل طويل، وهي سريعة الحركة، وهذه الثعابين لا تكاد تضر بالإنسان. ويعتقد أن سموم بعض أنواعها تؤثر على كريات الدم الحمر للإنسان، إلا أن معظمها عديم الضرر. وفي المملكة ٢٠ نوعاً من هذه العائلة، ثلاثة منها فقط ذات أنياب خلفية تحوي سماً فعالاً إذا انتشر في جسم الإنسان؛ منها ثعبان (أبو العيون) والزاروق والثعبان الشبيه بالقط.

ثعبان أبو العيون. ويسمى كذلك الحنش أو الداب في بعض مناطق المملكة. وينتشر في أماكن مختلفة، فهو يعيش في المناطق الرملية، والمناطق الصخرية، والأودية. وهو ثعبان طويل الجسم، قد يصل طوله إلى أكثر من ١٥٠سم. ويمتاز بلون رملي، وعلى الناحية الظهرية بعض النقط البنية الداكنة، أما الناحية البطنية، فذات لون أبيض يميل إلى الصفار. الرأس ضخم، والعنق متناسق مع الجسم الأسطواني، أما الذيل فطويل مستدق. ويتميز هذا الثعبان ببقع سود خلف الأعين، خلف كل عين بقعة سوداء، وكأنها عيون أخرى. ولهذا يطلق عليه أبو العيون، وهو من الثعابين الخلفية الأنياب، وله نابان في مؤخرة الفك العلوي بالفم،

رأس ثعبان (أبو العيون)

لذا فإن هذا النوع ضعيف التأثير لكنه قاتل للحيوانات الصغيرة كالأرانب الحديثة الولادة مثلاً، ويتغذى أبو العيون بالقوارض الصغيرة وبالطيور والسحالي، وله مسلك غريب، عندما يثار أو يداهمه الخطر، فيقف على الجزء الخلفي من جسمه، ويرفع جزءه الأمامي، ثم ينفخ رقبته مكوناً قلنسوة كأنه بذلك الكوبرا.

ويمكن التعرف على هذا النوع من آثاره التي تبدو على شكل حيود من التراب، لأن جسمه الضخم يدفع الرمل فيترك خطوطاً صغيرة. ويعيش غالباً مع الأفعى المقرنة في البيئة نفسها، ولا يحفر لنفسه أنفاقاً، لكنه يلجأ إلى أي جحر يجده في طريقه. وهو ليلي المعيشة، إلا أنه قد يشاهد خلال النهار. ولا يعرف على وجه الدقة تركيب سم هذا الثعبان، ومدى تأثيره على الإنسان.

الزاروق. وهو ثعبان أبو السيور الشجري. أما الزاروق فهو الاسم المنتشر بين عامة الناس، وسمي بذلك للسرعة الفائقة التي يمتاز بها، حيث يستطيع الاختفاء عن الأنظار خلال ثوان معدودة. وينتشر هذا الثعبان في أغلب مناطق المملكة، ويكثر في المناطق الزراعية، أو في المناطق ذات الغطاء الخضري الجيد، ومن هنا جاءت تسميته بأبي السيور الشجري لعلاقته الكبيرة

ثعبان (أبو السيور) الشجري

بالأشجار. يعيش عليها وحولها، ويتغذى بالطيور، وهو يتعلق على الأشجار، حتى يصبح كأنه غصن منها وعند ذلك تقع عليه الطيور دون أن تشعر به، فينقض عليها، وكذلك يتغذى ببعض أنواع السحالي الصغيرة. ويمتاز أبو السيور بخطين على جنبيه، لذلك أطلق عليه هذا الاسم، كما يمتاز بلونه الأخضر، الذي يمنحه الحماية، فلا يمكن تمييزه عن بقية أجزاء الشجرة. وله جسم طويل أسطواني، قد يصل طوله إلى ١٢٥ سم. الرأس غير متميز عن الرقبة، ولا عن بقية الجسم، والذيل طويل جداً. وهو من الثعابين الخلفية الأنياب، لذا فهو ضعيف السمية.

وكثيراً ما يشاهد هذا الثعبان رافعاً رأسه، أو الجزء الأمامي من جسمه. وربما كان ذلك من أجل رؤية أكبر مساحة ممكنة من المنطقة التي بها أعداؤه، والهرب بسرعة في حالة الخطر. ولا يهاجم الزاروق الإنسان، ويمكن مسكه دون أن يعض، إلا في بعض الأحيان النادرة. ولا معلومات عن سمية هذا الثعبان الخلفي الأنياب، إلا أنه عند العض يحدث جرحاً بسيطاً.

الثعبان الشبيه بالقط. هو ثعبان طويل قد يصل طوله إلى متر تقريباً. الجسم أسطواني أو منضغط قليلاً والذيل قصير، والرأس مميز عن العنق، والعيون متوسطة الحجم. لون الجهة

الثعبان الشبيه بالقط

الظهرية بني محمر، وقد توجد عليها بقع بنية أو بيض، ولون البطن بني فاتح. إنسان العين بيضاوي طولي يشبه بؤبؤ القط، ومنه جاء اسم الثعبان. وفي الفك العلوي زوج من الأنياب الخلفية وعدد من الأسنان الطويلة الدقيقة. درجة سمية هذا الثعبان غير معروفة، ولكن يفترض أنها غير قوية لأن أنيابه خلفية.

ينتشر في المنطقة الشمالية، والمناطق الجبلية في المنطقة الغربية والجنوبية الغربية، وجبال أجا وسلمى وجبال طويق في المنطقة الوسطى. وهو ليلي المعيشة ويتغذى بالطيور والخفافيش والسحالي.

عائلة الأبتر

أفراد هذه العائلة أرضية المعيشة، واسعة الانتشار، وتعيش في جنوب أفريقيا، ووسط وجنوب غرب الجزيرة العربية، وتضم ثعابين سامة، وهي ذات أنياب طويلة مذبة قوية على جانبي الفك العلوي من الرأس، ولها المقدرة على التحرك في اتجاهات مختلفة، وتخرج من الفم، وإن كان مغلقاً، ومن هنا تأتي خطورة هذا الثعبان، خاصة أن سمومها من أشد السموم خطورة، حيث تهاجم الجهاز الدموي للإنسان، وتكسِّر خلاياه، ومن ثم تؤدي إلى تحلل وتآكل الأنسجة حول مكان العضة.

يستوطن المملكة من هذه العائلة نوعان يشبه كل منهما الآخر شبهاً كبيراً، ولا يستطيع التمييز بينهما إلا المتخصصون في هذا المجال. ويعيش النوع الأول في المنطقة الوسطى من المملكة، والثاني في المنطقة الجنوبية الغربية.

الثعبان الأسود. ويطلق عليه سكان جنوب المملكة اسم الأسود. ويسمى أحياناً، في مناطق المملكة الأخرى، الحنش إذ ليس له اسم محدد. يمتاز بلونه الأسود الداكن، رأسه صغير غير متميز عن العنق. وجسمه أسطواني قد يصل طوله إلى ٨٠ سم، وذيله قصير، وعيناه صغيرتان ضامرتان. وأنيابه أمامية إبرية طويلة، تتحرك في اتجاهات مختلفة. يعيش في المنطقتين الغربية والجنوبية الغربية من المملكة، وكذلك المنطقة الوسطى. وينتشر في البيئات الزراعية، وهو من النوع الدفان، حيث يقضي معظم أوقاته تحت الأرض، يتغذى بالسحالي، وديدان الأرض، والقوارض. ويشكل هذا الثعبان مصدر خطر كبير لسكان المناطق الزراعية، ويتسبب في حدوث عديد من الوفيات

في بلاد غامد وزهران، لأنه لمّا يكتشف لسمه مصل بعد.

عائلة الثعابين البحرية

تضم حوالي ٥٠ نوعاً من الثعابين التي تسبح في مياه البحار والمحيطات الدافئة، وتمتاز بأنها قصيرة أو متوسطة الطول، وذنبها متحور على شكل زعنفة تساعدها في السباحة، ورأسها صغير مساو لقطر الجسم فلا عنق لها، والأنف مرتفع مزود بصمامات صغيرة لمنع دخول الماء، وجلدها مليء بالبقع الصغيرة على الظهر والبطن، وتختزن الهواء داخل الرئتين لفترة طويلة مما يساعدها على المكوث طويلاً تحت الماء. وهي تنفخ رئتيها عندما تريد الصعود إلى سطح الماء، وتفرغهما عند الغوص، ولها أنياب سامة قصيرة مجوفة في الفك العلوي، ويليها بعض الأسنان الصغيرة المجوفة، والفك السفلي مزود بأسنان مصمتة، وتتغذى بالأسماك، وهي ثعابين بيوضة ولودة تضع صغارها مباشرة في الماء.

ومن النادر أن تعض الثعابين البحرية الإنسان؛ لأن سلوكها غير عدواني، كما أن فمها ضيق، ولكن المعروف أن سمها خطير جداً، إذ أثبتت الدراسات أن نقطة واحدة من هذا السم تكفي لقتل خمسة أشخاص أقوياء البنية، ويهاجم سمها عضلات الجسم، وكذلك الجهاز العصبي، مما يؤدي إلى توقف عضلة الحجاب الحاجز، فيتوقف التنفس، ويحدث الاختناق.

وفي مياه الخليج العربي تسعة أنواع من الثعابين البحرية، جميعها سامة، ولا ثعابين بحرية في مياه البحر الأحمر.

حنش البحر ذو الحلقات. من أهم أنواع الثعابين البحرية الموجودة في مياه الخليج العربي. ويسمى حنش البحر، وهو عالمي الانتشار، يعيش بأعداد كبيرة في مياه الخليج العربي. رأسه صغير وعنقه أسطواني. جسمه طويل مضغوط. قد يصل طول الذكر إلى ١٥٠ سم، والأنثى إلى ١٩٠ سم. اللون رمادي، محاط بحلقات سود على طول الجسم، وهي أكثر وضوحاً من الناحية الظهرية. الفك العلوي مزود بنابين دقيقين بحجم رأس الدبوس. يتغذى بالأسماك وبعض الحيوانات اللافقرية. وهو شديد السمية حيث تقدر كمية السم القاتلة لشخص وزنه ٧٠ كيلوغراماً بحوالي ٤ إلى ٥ ملجم.

ثعبان البحر الأصفر البطن. وهو واسع الانتشار في مياه الساحل الغربي

لأمريكا الشمالية والمكسيك وأفريقيا. ويعيش في مياه الخليج العربي. من أكثر الثعابين تكيفاً مع الحياة البحرية نظراً لانضغاط جانبيه وسرعته الفائقة، وقد يعيش بعيداً عن الشواطىء في المياه العميقة. رأسه صغير ذو بوز متطاول، ويحتوي الفك العلوي على نابين صغيرين جداً. طول الذكر يصل إلى ٧٢ سم أما الأنثى فيصل طولها إلى حوالي ٨٨ سم. لونه بني، مسود على الجانب الظهري، ومصفر من الناحية البطنية. لا تعرف كمية السم القاتلة من هذا الثعبان.

حنش الخليج العربي. وهو من أكثر الثعابين البحرية انتشاراً في مياه الخليج العربي. وهو ثعبان سام، له نابان صغيران في الفك العلوي، ورأسه أسود متوسط الحجم، وجسمه متطاول يبلغ قطره حوالي ضعفي قطر العنق، ويصل طول الذكر إلى ٩٦ سم بينما يصل طول الأنثى إلى ٩٣ سم. اللون بني أو أسود أو مصفر، تتخلله حلقات سود عريضة من الجهة الظهرية. يتغذى بالأسماك. لا يعرف شيء عن كمية السم القاتلة من هذا الثعبان.

حنش البحر ذو الثنية. وهو في عدة أماكن من مياه الخليج العربي، ويعتقد بأنه يهاجر من الشواطىء إلى مياه الخليج العميقة في مواسم معينة من السنة. له نابان صغيران في الفك العلوي، يليهما أسنان قرنية يتراوح عددها من ١٠ إلى ١٢ سناً، ويصل طول الذكر إلى ٩٥ سم والأنثى إلى ٨٦ سم. الرأس كبير، والجسم قوي، قطره يبلغ ضعف قطر العنق، ولون الجسم من الناحية الظهرية رمادي فاتح أو زيتوني، يتخلله حوالي ٥٠ حلقة سوداء عريضة، ولون البطن أصفر أو أبيض. يتغذى بالأسماك، ولا تعرف الكمية القاتلة من سم هذا الثعبان.

عائلة الثعابين غير السامة

في المملكة عدة أنواع من الثعابين غير السامة لا أنياب لها، لذا فهي عديمة الضرر، وهي تعيش في بيئات متعددة وتنتشر في مناطق المملكة المختلفة، وأكثر هذه الأنواع شيوعاً في المملكة، هي تلك التي يصادفها الإنسان في بيئاته الزراعية، أو خلال رحلاته البرية؛ ومنها الثعبان الصخري والأنيق والدساس والأرقم.

الثعبان الصخري. يكثر في المناطق الجنوبية الغربية من المملكة، ويعيش بأعداد قليلة في المنطقة الوسطى. وهو

ثعبان غير سام، كبير الحجم، قد يصل طوله إلى ١٢٠سم. الجسم أسطواني دقيق متطاول، وعلى السطح الأعلى للرأس علامات مستعرضة، وعلى الصدغ خط معتم، مع نقاط معتمة، واللون برتقالي خلف العينين، ولون سطح الظهر محمر يميل إلى الوردي، أما سطح البطن فأبيض. وهو ليلي المعيشة، يمتاز بسرعة حركته، ويتغذى بالسحالي والبرمائيات وصغار القوارض.

الثعبان الأنيق. من الثعابين غير السامة النادرة جداً في المملكة. يوجد في المنطقتين الغربية والوسطى. يقتله الناس بسهولة بسبب ألوانه الزاهية التي تجعل رؤيته واضحة، خلافاً للأنواع الأخرى التي يماثل لونها لون البيئة التي تعيش فيها. وهو ثعبان صغير الحجم قد يصل طوله إلى ٥٠ سم. لون ظهره أبيض، وبه حلقات سود، ويمتد خط برتقالي دقيق في منتصف الظهر من أعلى الرأس حتى نهاية الذيل، وسطحه البطني أبيض مصفر. ليس له أنياب. وهو ليلي المعيشة، يتغذى بالسحالي وصغار القوارض.

الدساس. يسمى بالدساس أو الدسيسا والنادوس لأنه يغوص في الرمال ويدفن نفسه فيها، كما يسمى أيضاً الدفان. وهو واسع الانتشار في المملكة،

الثعبان الأنيق

الدساس

حيث يعيش في معظم مناطق الكثبان الرملية مثل نفود الثويرات، ونفود السبلة، ونفود الدهناء، ونفود الدحي والربع الخالي. وهو ثعبان صغير غير سام، يصل طوله إلى ٥٠ سم تقريباً. يميل لون ظهره إلى الاصفرار، مع بعض الشرائط ذات اللون البني، ولون البطن يميل إلى البياض، والجلد أملس ناعم يساعده على سهولة الغوص في الرمال، والرأس صغير، والعيون صغيرة في قمة الرأس الذي لا يمكن تمييزه عن العنق، وليس له أنياب. وهو ليلي المعيشة، يعيش في بيئة الكثبان الرملية، ويتغذى بصغار الفئران والسحالي.

الدساس ويسمى أيضاً الدفان

الأرقم. يسمى في المنطقة الجنوبية من المملكة «ثروان» أما في باقي مناطق المملكة فيسمى حنش وهو واسع الانتشار. في جنوب الحجاز، وأبها،

ومناطق شـمال البحر الأحمر، وفي أماكن عديدة من المنطقة الوسطى. وهو ثعبان ضخم طويل غير سام، قد يصل طوله إلى ١,٥ متـر. لونه رملي مع بقع داكنة بنية على سطح الظهر؛ ولهذا يسـمى فـي بعـض البـلدان الأرقـم الأحمر، أما سطح البطن فلونه باهت. وهو عديم الأنـياب، إلا أن الفكـوك تحتوي على أسـنان، ويحدث ألماً في مكان العضة. يعيش في البيئات الرملية الصلـبة والمفكـكة، ويتغذى بـصغار الثدييات.